مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد3 (نوفمبر) 1444هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-012-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

DOI: 10.54240/2318-012-003-008

التحالف والخلاف بين السلطتين الدينية والسياسية نهاية عصر المرابطين وبداية عهد الموحدين

The alliance and disagreement between the Religious and political authorities, The end of the Almoravid era and the beginning of the Almohad era

اسم ولقب المؤلف: يخلف حاج عبد القادر- HADJ ABDELKADER Ikhlef صص133- 150
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر أ- قسم التاريخ وعلم الآثار- كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية - جامعة وهران1- الجزائر/البريد الإلكتروني: ikhleforan31@yahoo.fr

تاريخ استقبال المقال: 2022/06/12.. تاريخ المراجعة: 2022/07/15.. تاريخ القبول: 2022/09/11

الملخص: شكلت ثنائية العلاقة بين الدين والسياسة في بناء الدول الإسلامية القروسطية مشرقية ومغربية، أهم المواضيع التي تناولتها الإسطوغرافيا العربية المعاصرة لتلك الأحداث، ويأتي في هذا السياق الدعوات الدينية التي انتقلت من المشرق الإسلامي إلى بلاد المغرب والأندلس، بعد ظهور الفرق الإسلامية هناك؛ وكان انتقالها إمّا بواسطة مشارقة شقّوا طريقهم إلى الغرب الإسلامي، الذي كان أرضا خصبة لاستنبات الدعوات الواردة من المشرق، وسهولة نشرها وتبنّيها، والعمل على تأسيس الدول في أصقاعه بناء على المزاوجة بين العصبيتين الدينية والقبلية؛ أو عن طريق مغاربة شرّقوا في رحلاتهم طلبا للعلم، فصاروا يمتلكون بعد عودتهم قاعدة علمية صلبة، ارتكزت في تعليمها وتثقيفها على المشرق، وكانت تحمل في نفسها مشروع تأسيس ملك سياسي مرجعيته دينية.

ومن هنا نشأ ذلك التحالف بين السلطتين الزمنية والروحية، كما هو الحال بالنسبة لدولة المرابطين، التي اصطدمت في نهاية عهدها بسلطة جديدة تحالفت فيها السلطتين المذكورتين آنفا، من أجل تقويض أركان الدولة اللمتونية، والقيام بتأسيس الدولة الموحدية الجديدة على أنقاضها، وفق تخطيط محكم استغلّ جميع الظروف والإمكانات المتاحة، لتحويل حلم المشروع إلى حقيقة على أرض الواقع. فإذا كانت الدولة المرابطية قامت على

أساس تحالف بين سلطتين إحداهما زمنية والأخرى روحية، فإنّ نفس التحالف سيجمع بين رجلين في الدولة الموحدية، ليبدأ الخلاف والصراع بين الدولتين، وينتهي بسقوط الدعوة والدولة المرابطية، وقيام الدولة الموحدية بتحالف جديد وبديل يجمع مجدّدا بين الزعامتين الروحية والزمنية إلى وقت معلوم.

الكلمات المفتاحية: الدعوة الدينية؛ السلطة السياسة؛ التحالف؛ التصادم؛ الدولة؛ المرابطون؛ الموحدون؛ المغرب؛ الأندلس؛ الغرب الإسلامي؛ العصبية القبلية.

Abstract: *The duality of the relationship between religion and politics in building medieval Islamic states was the most important topic addressed by the contemporary Arab epistemology of events. In this context comes the religious calls that moved from the Islamic East to the Maghreb and Andalusia- Either through Mashariqa, they made their way to the Islamic West, which was a fertile ground for the cultivation of invitations from the East, and the ease of spreading and adopting them, and working to establish states based on the marriage of religious and tribal fanatics- Or through Maghrebis who had a solid scientific base that based its education on the East, and it was carrying the project of establishing a political king with a religious reference.*

Thus, that alliance arose between the political and spiritual authorities, as is the case with the Almoravid state, which at the end of its reign collided with a new authority in which the two aforementioned authorities allied themselves, in order to undermine the pillars of the Lamtonian state and establish the new Almohad state on its ruins, according to an elaborate planning that took advantage of all circumstances, to turn the dream of the project into a reality on the ground, and they had what they wanted after a while.

Keywords: Religious call- Authority Politics- Alliance- Collision- The state- Almoravids- Almohads- The Maghreb- Andalus- Islamic West- Tribal fanaticism.

مقدمة: يشكل البحث في الدعوات الدينية وتأثيرها على الواقع السياسي أبرز العوامل، التي تحدثت عنها مظان الإسطوغرافيا العربية القروسطية في بناء الدول خلال العصر الوسيط، ومرافقة مشروع تأسيسها والذود عن سياسات أصحابها حفاظا على بقائها من خطر السقوط والزوال. وسنحاول من خلال الموضوع الذي نحن بصدده معالجة ثنائية العلاقة بين العصبية الدينية والعصبية القبلية في بلاد المغرب في العصر الوسيط، أين كان للدعوة الدينية دور بارز في ظهور العديد من الدول على مجالها، تحالفت فيها السلطة الزمنية مع السلطة الروحية في قيامها وإرساء قواعدها وتثبيت سلطانها.

وممّا لا شكّ فيه أنّ تعارض الفهم للنصوص الظنية الدلالة الحمّالة للتأويل بين الفقهاء، كان سببا في اختلاف الرّأي الذي نتج عنه ظهور ما يسمّى بالمذهبية، التي جعلت

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد3 (نوفمبر) 1444هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-012-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

من التحالف داخل إطار الدولة بين علماء السلطة وحكّامها يتحول إلى تصادم خارجي مع قوّة ناشئة تتبنّى أفكارا مذهبية مخالفة، وتطمح أن تبرّر خطابها عبرها لتقويض المذهب ودولته عند الغير والتأسيس لبناء مذهب ودولة جديدة على أنقاض تلك الدولة الزّائلة، لتبدأ من جديد علاقة التحالف بين العالم والحاكم في الدولة الحديثة الولادة. وهذا ما ينطبق تماما على نهاية عهد المرابطين وزوال دولتهم، وقيام دولة الموحدين في بلاد المغرب الإسلامي والأندلس خلال النصف الأول من القرن 6هـ/12م.

فكيف حدث ذلك التآلف الداخلي بين العصبيتين الدينية والقبلية في ظل الدولة المرابطية؟ ولماذا تحوّل التحالف بينهما إلى تصادم خارجي نشأ بين سلطة أخرى تحالفت فيها الزعامتين الروحية والزمنية، للإطاحة بالمرابطين والتأسيس لدولة الموحدين؟

ولمعالجة إشكالية هذا الموضوع فإنّنا نروم اتّباع منهجية تاريخية تعتمد على استخراج النصوص، التي تخدم إطاره زمانيا ومكانيا، ثم العمل على تدقيق الملاحظة، بعد قراءتها ومناقشتها والتعليق عليها بما تقتضيه منهجية التحليل؛ وقد قسّمنا خطّة العمل إلى مقدّمة وعنصرين هما كالتالي:

- تحالف السلطتين الروحية والزمنية في الدولة المرابطية.
- التحالف والخلاف بين الفكر الديني والسياسي نهاية عصر المرابطين وبداية الموحدين.

ثم خاتمة جمعنا فيها أهم النتائج والاستنتاجات المتوصل إليها من خلال البحث.

1- تحالف السلطتين الروحية والزمنية في الدولة المرابطية: إنّ المتأمّل في تاريخ تأسيس الدول التي نشأت في بلاد المغرب في العصر الوسيط، يلاحظ بكلّ دقّة ووضوح أنّ قيامها كان نتيجة تحالف، جمع بين قبائل معيّنة بذاتها، تملك القوّة والسّطوة وشخصيات من الأعلام؛ تحمل أفكارا دينية جديدة قابلة للتجسيد في الواقع، إذا ما وجدت من يحتضنها ويزرع بذرتها ويتولاّها بالرّعاية، حتى تنمو وتكبر ثم تفرض نفسها في مجال جغرافي محدّد، يحمل اسم الدولة النّاشئة.

ومن منطلق هذه التجربة سعى الأمير يحي بن إبراهيم اللمتوني زعيم حلف صنهاجة إلى تحقيق تلك الغاية، وإن لم يكن قد خطّط لها، حيث خرج من الصحراء حاجّا للبقاع المقدّسة عام 427هـ/1035م وترك خلفه- على قومه- ابنه إبراهيم؛ وفي طريق عودته للديار

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد3 (نوفمبر) 1444هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-012-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

مرّ بالقيروان التي كانت حاضرة علمية بامتياز، وهناك التقى بعالم زمانه الإمام أبي عمران الفاسي، إمام المالكية في المغرب قاطبة[1]، فجلس يستمع إلى فيض علمه وقوّة حجّته؛ ولاحظ الشيخ أبو عمران حرص هذا الرّجل على أخذ العلم. وعندما تحدّث إليه عرّفه بنفسه وبحاجة قبائل بلاده إلى من يخرجها من ظلمة جهلها ويعرّفها بأصول دينها وفروعه عقيدة وعبادة ومعاملة، فسأله الأمير يحي أن يرسل معه من طلبته من يراه مناسبا لهذه المهمّة النبيلة والشّاقة[2].

وليس ثمّة شك أنّ أولّ خطوة لتأسيس الدولة المرابطية تمتُّ جذورها الأولى بصلة إلى حركة دينية، بدأت بعد هذا اللقاء بين الزعيم السياسي الأمير يحي بن إبراهيم، والزّعيم الرّوحي أبو عمران الفاسي، حيث سينشأ التحالف بين السلطتين الدينية والزمنية؛ لكن تجسيد هذه الدولة على الواقع كان لا بدّ أن يخضع لفقه المرحلية بداية بالتعريف وصولا إلى التمكين، الذي بدوره يمرّ عبر المطالبة من أجل الوصول إلى المغالبة[3].

وللقيام بهذه المهمّة على أحسن وجه أشار الشيخ أبو عمران على الأمير يحي بالفقيه وجاج بن زلّو اللمطي، وهو أحد تلامذته، كان يقيم في السوس الأقصى بالمغرب، في رباط له بمدينة نفيس، بمكان يعرف بملكوس[4]؛ ومن هناك بعث الفقيه وجّاج بمعيّة الأمير يحي طالبه المتميّز الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي، ليفقّه الملثّمين في أمور دينهم، ويحرّضهم على جهاد أهل الشرك في الصحراء، ومدافعة ممالك السودان[5].

وهكذا بدأ العمل على بعث حلم مشروع إقامة دولة مالكية المذهب في عمق الصحراء، بمباركة الشيخ أبي عمران الفاسي، وبإرشاد منه إلى الفقيه وجاج بن زلّو اللمطي؛ الذي

1- حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين- صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصر الوسيط، دار الفكر العربي- القاهرة، 1956، ص109.

2- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، المنصور للطباعة والوراقة- الرباط، 1972، صص122-123.

3- علي محمد الصلابي، فقه التمكين عند دولة المرابطين، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة- القاهرة، ط1، 1427هـ/2006م، صص36-40، صص48-49.

4 - أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ج2، ص859.

5 - عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمّى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، 1421هـ/2000م، ج6، ص243. هكذا ورد العنوان عند محقق الكتاب، كما ورد في نسخة مخطوطة تحت عنوان:"كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيّام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"(المقدمة)، الرقم: 676، رمز الحفظ: .N.F.186.b، عدد الأوراق: 159. ينظر: فهرس المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية النمساوية، تحقيق وتعريب وتدقيق محمد عايش، شقيقة الصفا العلمية، ط1، 1429هـ/2008م، ص282. وورد أيضا باسم "ترجمان العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والبربر"(المقدمة)، رقم: 373، في 332 ورقة. ينظر: مخطوطات مكتبة ميونيخ الموجودة في المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، تحت رقم 2583. Die Arabischen handschriften Der Staatsbiblithek K. Hof-Und in Muenchen, Beschrieben von Joseph AUMER, secrtar an der K. Bibliteck, Unveranderter Nachdruck, 1970, Otto Harrassowitz Wiesbaden، ص139.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد3 (نوفمبر) 1444هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-012-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

اختار من يصلح لمهمّة الدّعوة التي تسبق قيام الدولة، عن طريق إقامة وحدة صنهاجة بتوحيد قبائلها المتنافرة (جدّالة- لمتونة- مسوفة- لمطة)، وجمع أمرها على أساس من الدين المتين والخلق القويم[1].

ولما وصل الأمير يحي والشيخ عبد الله بن ياسين إلى جدّالة، اجتمع عليه عندهم نحو سبعين شخصا ليفقّههم فانقادوا له ووالوه[2]؛ وأكرموه لعلمه وفضله، وبعد أن أصلح عقيدتهم عرّفهم بشرائع الإسلام من صلاة وزكاة وغيرها، ثمّ انتقل إلى تغيير أحوالهم وعوائدهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فمنعهم من ارتكاب المحرّمات كالزواج بأكثر من أربعة نسوة حرائر، وأنّ من قتل يقتل ومن سرق يقطع ومن زنا يجلد، فلم يلتزموا بذلك ونفروا منه وقالوا له: اذهب إلى غيرنا[3]. ويذكر ابن عذاري أنّهم عزلوه وانتهبوا داره وهدموها[4].

فخرج منها خائفا من سطوتهم بصحبة سبعة رجال من جدالة، ومعهم يحي بن إبراهيم وأخوه، فآووا إلى "ربوة يحيط بحر النيل من جهاتها ضحضاحا في المصيف وغمرا في الشتاء، فتعود جزرا منقطعة"[5]، وهي تقع بالقرب من نهر السنغال[6]؛ فابتنى بها رباطه الذي صار يعرف باسمه سنة 433هـ/1041م، وفي بضعة أشهر كثر أتباعه حتّى صار عددهم نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة، كانوا يعيشون حياة الزهد والتصوّف والمرابطة، فسمّاهم "المرابطين"؛ وأدّى هذا الرّباط دوره كمسجد للعبادة ومدرسة للتعليم وثكنة لإعداد الرّجال لمحاربة الشرك وأهله، ومهدا لقيام دولة المرابطين[7].

فلمّا بلغ بهم الغاية من التعلّم والتفقّه في الدين، دعاهم إلى جهاد من استباحوا المحرّمات ولم يدينوا بدين الحقّ، وبدأ بجدّالة التي غزاها بثلاثة آلاف رجل في صفر سنة 434هـ/سبتمبر 1042م، فهزمهم وخلّى سبيل من لم يُقتل منهم بعد أن استجابوا لما فرض

1 - حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص111.
2- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983، ج4، ص8.
3- النويري شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج24، ص140./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص124.
4- البيان المغرب، ج4، ص8-9.
5 - ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص243./ لسان الدين بن الخطيب، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثالث من أعمال الأعلام، تحقيق أحمد مختار العبادي محمد إبراهيم الكتّاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964، ص227.
6 - فيج. جي. دي، تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة وتقديم وتعليق السيد يوسف نصر، مراجعة الترجمة إلى العربية بهجت رياض صليب، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1982، ص48-49.
7 - إبراهيم حركات، النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، د.ت، ص115.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد3 (نوفمبر) 1444هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-012-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

الله عليهم؛ ثم جاء الدور على لمتونة ومن بعدها مسّوفة، فبايعوه وأقرّوا له بالسمع والطاعة. ولمّا توفّي يحي بن إبراهيم الجدّالي، أمّر ابن ياسين على صنهاجة يحي بن عمر اللمتوني قائدا لجيوش المرابطين؛ وكان ابن ياسين الزعيم الرّوحي والقائد الفعلي الذي يتولّى النظر في أحكام الدين وجمع الزكاة والعشور، واكتسح يحي جميع بلاد الصحراء، وفتح كثيرا من بلاد السودان[1].

وعلى إثر استغاثة فقهاء درعة وسجلماسة، بسبب المنكرات والظلم والذلّ الذي كان يتعرّض له أهل العلم والدين، في إمارة مسعود بن وانودين الزناتي المغراوي[2]، خرج إليهم ابن ياسين بجيش كبير في 20 صفر عام 447هـ/21 ماي 1055م؛ وتمكّن من الانتصار على المغراويين وقتل أميرهم مسعود، وقسّم خمس الغنائم على فقهاء درعة وسجلماسة، والباقي على جند المرابطين؛ واستشهد الأمير يحي بن عمر مجاهدا في بلاد السودان، فاختار ابن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر اللمتوني مكانه في محرّم سنة 448هـ/مارس- أبريل 1056م[3].

وندب عبد الله بن ياسين الأمير أبو بكر بن عمر للخروج إلى بلاد السوس والمصامدة، فخرج إليهم في جيش كثيف أمّر عليه ابن عمّه يوسف بن تاشفين، وسار نحو بلاد السوس ففتحها؛ وقضى على الروافض الشيعة البجلية[4] برودانة وأسلم من بقي منهم على قيد الحياة، ثم غزا بلاد المصامدة فدخل أغمات في سنة 449هـ/ 1057-1058م، ففرّ أميرها لقوط بن يوسف المغراوي؛ ولجأ إلى ملوك بني يفرن في تادلة مستجيرا بهم، فتبعه هنالك وقتله بمعيّة من وجد بها من ملوك بني يفرن وفتح تادلة، ثم غزا ابن ياسين مجوس برغواطة وكان بينه وبين أميرهم أبو حفص عبد الله بن أبي عبيد البرغواطي معارك طاحنة وملاحم كثيرة، استشهد في إحداها عبد الله بن ياسين في 24 من جمادى الأخيرة سنة

---

1 - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص125-127.

2 - هو آخر أمراء زناتة المغراويين الذين حكموا بعد أفول دولة الأدارسة، وتركز حكمه في سجلماسة ودرعة، وكان يتّصف في حكمه بالجور والظلم. المصدر نفسه، ص127./ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج6، ص243، ج7، ص52. /ابن سماك العاملي، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المرّاكشية، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010، ص67-68./ حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص193-194.

3 - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص127-128.

4- هم طائفة من الشيعة تنسب إلى عبد الله البجلي الرافضي، الذي دخل السوس الأقصى مع أبي عبد الله الشيعي العبيدي، وهناك عمل على نشر مذهبه، فتوارثه أتباعه جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن، وكانوا يرون أنفسهم على الحق وغيرهم على الضلالة. أُنظر: ابن أبي زرع الفاسي، المصدر نفسه، ص129./ حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 210-211.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد3 (نوفمبر) 1444هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-012-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

451هـ/8 جويلية 1059م؛ وأوصى قبل أن يفارق الحياة قادة المرابطين بالاتحاد ونبذ الخلاف بينهم، والثبات في جهادهم[1].وأمّ المرابطين بعده سليمان بن عدّو[2].

وفي رجب سنة 462هـ/ماي سنة 1070م شرع المرابطون في تأسيس عاصمتهم، ولمّا دخلت سنة 463هـ/1070م جاءه رجل من الصحراء فأخبره بأنّ جدّالة أغارت على لمتونة، فقسّم الأمير أبو بكر جيش المرابطين قسمين، وترك ابن عمّه يوسف نائبا عنه؛ فتوجّه صوب الشمال بالجيش الذي معه، للقضاء على القبائل المتمرّدة، التي دخلت في طاعته واحدة تلو الأخرى، بينما توجّه هو بمن معه نحو الجنوب، لإصلاح ذات البين بين جدّالة ولمتونة؛ فتمكّن من رأب الصّدع[3]، واستطاع أن يمدّ نفوذه في الصحراء، إلى بلاد جبل الذهب في السودان (مملكة غانة)، ونشر الدين الإسلامي بين الشعوب الوثنية فيها[4].

وبعد إنجاز هذه المهمّة عاد الأمير أبو بكر إلى مراكش في شهر ربيع الأول سنة 465هـ/ نوفمبر 1072م، فوجد ابن عمّه استبدّ بالحكم ورضخت له جميع البلاد؛ وبعث له يوسف بالهدايا والتحف لتطييب خاطره، ثم لقيه خارج المدينة فتنازل الأمير أبو بكر له عن الملك لزهده وورعه، وثبّته في منصبه رسميّا، ليستمرّ يوسف بن تاشفين في تدبير شؤون الدولة، التي تعاظم شأنها في غيابه؛ وعاد إلى الصحراء التي قضى بها ثلاث سنوات محاربا لبلاد السودان، واستشهد في إحدى المعارك بسهم أصابه[5].

والملاحظ أنّ مشروع الدولة المرابطية الذي بدأ بالتحالف بين زعامتين إحداهما دينية والأخرى سياسية تدعمان بعضهما، تمكّن من رؤية النّور بعد عمل ممنهج أرسى قواعد التأسيس لدولة الملثمين، التي استطاعت أن تقضي على مظاهر الشرك والسلوكيات الخاطئة اللا أخلاقية، والظلم بكلّ أشكاله في مجتمع المغرب والصحراء؛ وقدّمت البديل الإسلامي الصحيح ففرضت نظامها على ضوئه، لتوحيد جميع القبائل تحت رايتها، من خلال نشر العدل وإزالة الضرائب والمكوس عن المظلومين في بداية عهدها، في دولة تتمذهب

1 - ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص128-132.

2- رغم أنّه أصبح إماما للمرابطين بعد استشهاد ابن ياسين، ولا نشكّ بأنّه كان من أهل العلم، بدليل أنّ المرابطين كانوا يرجعون إليه في قضايا دينهم، إلاّ أنّنا لم نعثر له على ترجمة في كتب التراجم المعروفة لدينا. واستشهد – هو الآخر- في جهاد برغواطة سنة بعد وفاة ابن ياسين. ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص244.

3 - ابن عذاري، المصدر السابق، ج4، ص19-22.

4 - عبد الله عبد الرّازق إبراهيم وشوقي الجمل، دراسات في تاريخ غرب إفريقيا الحديث والمعاصر، القاهرة، 1998، ص12/الصلابي، المرجع السابق، ص56.

5 - ابن عذاري، المصدر السابق، ص24-26/حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص224-225.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد3 (نوفمبر) 1444هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-012-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

بالمذهب المالكي وهو أحد مذاهب أهل السنة والجماعة، وتدافع عن الدين وأهله بالسلطان، وتنتصر للحقّ على الباطل في المغرب والأندلس ما بين القرنين 5 و6هـ/11 و12م.

والشّاهد على ذلك أنه بعدما صفا ملك المرابطين ليوسف بن تاشفين، عمل على ترسيخ التحالف بين زعامته السياسية والسلطة الدينية، من خلال استفتائه للفقهاء، الذين أحبّهم وأدناهم منه مجلسا، وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال[1]؛ فلم يكن يقطع أمرا دون استشارتهم عملا بالسنّة الشريفة، حتّى يضبط تصرّفاته ولا يخرج بها عن حدود الشّرع. وكذلك كان ابنه علي من بعده وسائر حكام هذه الدولة، التي كانت تبجلّ الفقهاء وتولي خطة القضاء أهمّية خاصّة؛ وبالمقابل كان "قضاة السلطة" يحظون بالوجاهة والمكانة الاجتماعية المرموقة، بسبب تحالفهم الذي جرّ عليهم الكثير من الامتيازات والمكاسب والثروات العقارية والمادية[2].

لقد استأثر الفقهاء في الدولة اللمتونية فضلا عن خطة القضاء بخطط الفتيا والحسبة والشورى والصلاة والكتابة، وهو ما جعل التحالف يطغى على علاقتهم بالسلطة التي خدموها طيلة عهد الدولة المرابطية- إذا ما استثنينا المرحلة الأخيرة من تاريخها- فكانوا يمثلون الواسطة بينها وبين الرّعيّة، ويبرّرون أفعالها وينافحون عنها بالنّصوص الشرعية؛ ويعتبرون صمّام الأمان فيها، بحيث لا تستغني السلطة عن رأيهم ولا تخرج عن فتاويهم، ولا تمتلك العامّة بدورها بديلا عن الاقتداء والانقياد إلى ما يصدر عنهم.

ولا مشاحّة أنّ بعض الفقهاء ابتعدوا مع مرور الزّمن عن شظف العيش وخشونته، وتخلّوا عن حياة الزهد التي كانوا يعيشونها في رباطهم، وفي مواطنهم بالصحراء أيّام النشأة الأولى لدولتهم، وانغمسوا في الملذّات واتّبعوا الشهوات، وصاروا طلاّب دنيا وتنافسوا في جمع حطامها؛ حتى أصبحوا يضاهون الأمراء في عيشهم، والأمثلة على ذلك كثيرة ونذكر من هؤلاء- على سبيل المثال لا الحصر- الفقيه ابن حمدين أبو عبد الله (ت508هـ/1114م) الذي "حاز في المكانة لدى الملثمين ما لم يحزه غيره ممّن سلف"[3]، والفقيه أبو محمد عاشر بن محمد بن عاشر، الذي " ولي قضاء مرسية وأقاليمها فنال دنيا عريضة، ... واستمرّ له

---

1 - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص137./ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص234.

2 - إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عهد المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1997، ص144.

3- ابن القطان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1410هـ/1990م، ص73-74.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد3 (نوفمبر) 1444هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-012-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

ذلك إلى انقراض الدولة اللمتونية"[1]، ومحمد بن الحسن بن كامل الحضرمي (ت539هـ/1144م)، الذي " انتهى من كثرة المال وسعة الحال إلى ما لم يصل إليه غيره"[2].

ولا جرم أنّ تحصيل الثروة إمّا أن يكون من حلال أو من حرام، ولا غرابة في جمع المال بالطرق المشروعة، إلاّ أنّ هناك من الفقهاء والقضاة من تجاوز الخطوط الحمراء، فسعى إلى تحصيل المال بالرّشوة، وقد أشار ابن عذاري نقلا عن ابن الصيرفي إلى ما جرى بين الطبيب ابن زهر والقاضي ابن منظور، فقال في ذلك ابن زهر:

إنّ ابـن منظـور تعجّب هـــازلا لما مرضتُ فقلتُ: يعثر من مشى
فقد كان جالينوس يمرض دائما فمن الفقيه المرتضى أكل الرّشا

فلمّا بلغ ذلك الأمير علي بن يوسف بعث إليه كتاب عزلته[3].

وممّا قيل في فقهاء مالقة[4]:

إذا رأوا جملاً يـأتي على بُعُـدٍ مدّوا إليه جميعا كفّ مقتنص
إن جئتهم فارغاً لَزُّوك في قَرَنٍ وإن رأوْا رشوةً أفتوك بالرُّخَصِ

وإنّه من الظلم أن يعمّم هذا السلوك، بأن يقول قائل: إنّ الفقهاء في الدولة المرابطية كانوا كلّهم على هذه الشّاكلة؛ إلاّ أنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ فقهاء وقضاة السّوء فيها على قلّتهم، كانوا من بين الأسباب التي جعلت المجتمع ينقم عليهم وعلى الدولة المرابطية، التي ولّتهم الخطط وأمّنتهم على الرّعيّة، فامتلكوا الثروات وجاروا بمناصبهم على الضعيف وحادوا عن العدل، "والعدل –كما قيل- أساس الملك"[5]، وعنوان لطول أعمار الدول، وقد بدا ذلك واضحا للعيان في مستهلّ القرن 6هـ/12م.

1- ابن الأبّار القضاعي، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهرّاس، دار الفكر للطباعة، بيروت، 1415هـ/1995م، ج4، ص45.

2- ابن عسكر أبو عبد الله وابن خميس أبو بكر، أعلام مالقة، تقديم وتعليق عبد الله المرابط الترغي، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط- در الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1420هـ/1999م، ص82./ ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1973، السفر 6، ص162-163.

3 - البيان المغرب، ج4، ص49.

4 - أُنظر ترجمة ابن الطراوة أبو الحسين سليمان بن محمد (ت528هـ) لدى: ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، 1964، ج4، 81/ السيوطي جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، د..ت، ج1، ص602.

5 - علي جمعة محمد عبد الوهاب، المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية، دار السلام- القاهرة، ط2، 1422هـ/2001م، ص319.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد3 (نوفمبر) 1444هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-012-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

2- التحالف والخلاف بين الفكر الديني والسياسي نهاية عصر المرابطين وبداية الموحدين: إذا كان الفقهاء هم من حملوا على عاتقهم همّ تأسيس الدولة اللمتونية، فإنّهم سيكونون في نهاية عهدها أحد المعاول التي أدّت إلى تقويض أساسات ملكها، بعد أن تغيّرت حياة بعضهم من الزهد والتقشّف والجهاد، إلى الرّفاهية والابتعاد عن التعاليم الصحيحة؛ التي أُسّست عليها دولتهم، حتى صاروا ينعتون بمختلف النّعوت التي لا تليق بمقامهم. وفي هذه الأثناء عاد من المشرق إلى بلاد المغرب رجل اسمه محمد بن تومرت يحمل معه علما غزيرا، ويخفي في قرارة نفسه مشروع تأسيس دولة تحكم المنطقة ككلّ؛ مهّد لها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، انطلاقا من تونس إلى مراكش، وقد كشف عن مشروعه هذا في اللقاء الذي جمعه بعبد المؤمن بن علي في مسجد ملاّلة ببجاية، حيث توسّم فيه صفات القيادة فأقنعه بالعدول عن مسيره إلى المشرق، قائلا له: "إنّ الأمر الذي فيه حياة الدين لا يقوم إلاّ به، فهو سراج الموحدين"[1].

ويعتبر هذا اللقاء الأرضية التي أسّست لمشروع الدولة التي كان يسعى إلى إقامتها ابن تومرت، اين سيتمّ التحالف بين سلطتين: دينية يمثّلها هو، وسياسية عسكرية يجسّدها عبد المؤمن بن علي؛ ولتحويل الفكرة من العدم إلى الوجود، بدأ ابن تومرت بزرع بذور الفتنة تحت غطاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجال الجغرافي التابع للدولة اللمتونية؛ فأدّى ذلك إلى استدعائه لبلاط الأمير علي بن يوسف في مراكش، ليختبر في حاله وينظر في علمه، فناظره فقهاء الحاضرة فظهر عليهم، وتبيّن لمالك بن وهيب الأندلسي أنّه طالب ملك، فأشار على الأمير علي بقوله:" اجعله في الكبول، وإلاّ فقصده أن يسمعك الطبول"[2]؛ لكنّ الأمير أخذ برأي من أشار عليه بنفيه من بلاده، فخرج إلى تينمّل من بلاد المصامدة بالسوس الأقصى[3]. وكان ذلك من التسامح الشديد الذي عرف عن علي بن يوسف.

1 - البيذق أبو بكر بن علي الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط، 1971، ص16.

2 - ابن سماك العاملي، المصدر السابق، ص68.

3 - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح واعتناء صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط1، 1426هـ/2006م، ص140.

وللتعريف بدعوته أظهر ابن تومرت للعامّة غيرته على الدين، وسخطه على الأمراء الذين لم يقوموا بواجبهم في نصرة الدين في دولتهم؛ فأخذ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ليضفي على نفسه صفة المصلح الديني والاجتماعي، مغتنما الوضع الاجتماعي المزري الذي كان يسيطر عليه الفقهاء في مستهل القرن 6هـ/12م؛ فشنّ حربه على الدولة المرابطية من خلالهم، واصفا إيّاهم في رسالته التوحيدية بـ" الملبّسون الذين ... كلّما سألوهم عن شيء أفتوهم به على ما وافق أهواءهم وأغراضهم، فضلّوا وأضلّوا"[1].

ولا مشاحة في أمره أنّه استعمل خطابا دينيا ظاهره الأمر بالمعروف وباطنه التأثير على عقول العامّة من الناس، وهزّ ثقتهم بالدولة المرابطية أولا، ثم العمل على كسب ولائهم فيما بعد، عند ما يحين زمن مواجهة المرابطين عسكريا، لإزالة وجودهم وتأسيس دولته على أنقاض دولتهم. والمتأمّل في العنوان البارز الذي خصّهم به في رسالته ألا وهو " باب في بيان طوائف المبطلين الملثمين والمجسّمين وعلاماتهم"، يدرك مدى خطورة ما كان يحضّر له للإطاحة بهم، ويكفي أن نشير إلى بعض الإدّعاءات التي لا تنطلي إلاّ على السذّج من العوام[2]، ومنها أنّه وصفهم بالحفاة العراة العالة... ويستكثرون من الجواري،... وأنّ نساءهم رؤوسهنّ كأسنمة البخت، (المائلة) يعني أنهن يجمعن شعورهنّ فوق رؤوسهنّ حتى تكون شعورهنّ على تلك الصفة.."[3].

وذهب إلى أبعد من ذلك بكثير، إلى حدّ تكفيرهم وحرمة التشبّه بهم في قوله:" وكذلك المجسّمين الكفّار، وهم يتشبّهون بالنّساء في تغطية الوجوه بالتلثّم والتنقيب، ويتشبّه نساؤهم بالرّجال في الكشف عن الوجوه بلا تلثّم ولا تنقيب"، ثم قال والتشبّه بهم حرام مستدلاّ بالحديث الذي رواه ابن عبّاس عن رسول الله ﷺ قال: [لَعَنَ اللهُ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَلَعَنَ الْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ][4]. وأردف ذلك بأبواب في رسالته حثّ فيها أتباعه على وجوب بغضهم ومعاداتهم على باطلهم وظلمهم، وتحريم طاعتهم واتّباع

---

1 - محمد بن تومرت"المهدي"، أعزّ ما يطلب، تحقيق عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر، الرباط، 1997، ص389.

2 - عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين -عصر الطوائف الثاني 510-546هـ/1116-1151م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م، ص28.

3 - ابن تومرت، المصدر السابق، ص385.

4 - الطبراني أبو القاسم، المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2، ج11، ص252./ إسناده صحيح على شرط البخاري، وأخرجه البخاري (5885) وغيره من المحدّثين. أنظر: أحمد بن محمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد، وآخرون، إشراف عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1421هـ/2001م، ج5، ص243.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد3 (نوفمبر) 1444هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-012-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

أفعالهم، ووجوب جهادهم على الكفر والتجسيم، وإنكار الحقّ واستحلال دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، وعلى ارتكابهم المناكر والفجور، وتماديهم على ما لا يؤمرون به، على حدّ زعمه[1].

والحقّ الذي لا يجب العزوب عنه أنّ كلّ ما ورد في حقّهم من أوصاف إنّما هو من قبيل الحرب الدّعائية لتقويض دولتهم ليس إلاّ، لأنّ من يقف على حقيقة الأمر يدرك أنّ ما سوّقه ابن تومرت لأتباعه هو كلمة حقّ أريد بها باطل، وهم من هذه الأوصاف (المرابطون) بريئين براءة الذئب من دم يوسف، إلاّ ما كان من فساد بعض علمائهم، فيما سبق الحديث عنه من قبل.

وإلاّ فهذا عبد الواحد المراكشي الذي خدم أمراء الموحدين، رغم تحامله على المرابطين وعلى علي بن يوسف يشهد شهادة حقّ فيقول عنه: "فجرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد، وإخافة العدو، وحماية البلاد. وكان حسن السيرة، جيّد الطوية، نزيه النفس، بعيدًا عن الظلم؛ كان إلى أن يُعَدّ في الزهاد والمتبتّلين أقرب منه إلى أن يعدّ في الملوك والمتغلّبين.... وكان لا يقطع أمرًا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء؛ فكان إذا ولّى أحدًا من قضاته كان فيما يعهد إليه ألاّ يقطع أمرًا ولا يبتّ حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلاّ بمحضر أربعة من الفقهاء"[2].

وممّا ذكره بشأنه أنّه: "كان يقوم الليل ويصوم النهار، مشتهرًا عنه ذلك؛ وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال؛ فاختلّ لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس، وكادت تعود إلى حالها الأول، لا سيما منذ أن قامت دعوة ابن تومرت بالسُّوس"[3]. وهذه أيضا من الأكاذيب التي ألصقت بهذا الحاكم الذي كان يسوس البلاد والعباد بالعقل والدين، ولم يكن على شاكلة الموحدين في دمويتهم، التي عرفت بحادثة التمييز[4].

وخلاصة ذلك أنّ ابن تومرت قرّر التّأكّد من ولاء أتباعه بعد تكاثر المنضمّين إليه، للتخلّص ممّن لا يثق بإخلاصهم له، فأقدم على تمييز الموحدين باتّفاق مع عبد الله بن

---

1 - ابن تومرت، المصدر السابق، صص390-393.
2 - المعجب، ص130.
3 - المصدر نفسه، ص135.
4 - دندش، المرجع السابق، ص30.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد3 (نوفمبر) 1444هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-012-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

محسن الونشريسي المكنّى بالبشير[1]، الذي أظهره ابن تومرت للناس بأنّه مجنون، وأخفى عليهم حقيقة حفظه للقرآن ومعرفته للعلم؛ فلمّا جاءت ساعة الحسم ادّعى هذا أنّه أتاه ملك فأقرأه القرآن والعلم، فامتحنوه فوجدوه كذلك، ثمّ قال لهم إنّه مأمور بتمييز أهل الجنّة من أهل النّار[2]؛ فكان تمييزه للخلق من يوم الخميس إلى يوم الجمعة بعد أربعين يوما، فمات يومئذ من النّاس خمس قبائل بموضع يقال له إيكرن وسنان[3]، وذكر ابن الأثير أنّ التمييز كان سنة 519هـ/1125م، وخلص إلى القول في هذا التمييز: " فكان عِدَّةُ القتلى سبعين ألفا، فلمّا فرغ من ذلك، أمن على نفسه وأصحابه، واستقام أمره"[4].

وإذا كانت الأسباب التي أدّت إلى سقوط الدولة المرابطية كثيرة، فإنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ ما عجّل بسقوطها اضطراب أحوال الأندلس، بعد اتّحاد النصارى في مملكة واحدة وإلحاحهم في طلب ما بيد المسلمين من المدن؛ وتزامن ذلك مع حركة الموحدين، التي استغلّت انشغال الأمير تاشفين بن علي بمواجهة تكالب النصارى، وعندها قام ابن تومرت بطعن المرابطين في ظهرهم، معلنا بداية ثورته على دولتهم[5]. فكان من نتائج ذلك استدعاء الأمير تاشفين لإنقاذ حاضرتهم من هذه الثورة، فعاد بمعظم جيش المرابطين بالأندلس؛ واشتدّت الأزمة عليهم فأصبحوا مقسّمين بين أعدائهم النصارى في الأندلس، وإخوة أعداء في المغرب يسمّون أنفسهم الموحّدين، تحالفت سلطتيهما الدينية والدنيوية للإطاحة بالدولة المرابطية.

وممّا زاد الطين بلّة أنّه في الوقت الذي كانت الدولة المرابطية تتلقّى الضربات من قبل النصارى والموحدين، شهدت الأندلس بعد مقتل الأمير تاشفين بداية ثورة المريدين الدينية

1- لقي ابن تومرت عند عودته إلى بلده من رحلته إلى المشرق بجبال ونشريس التي ينسب إليها، فلحق بابن تومرت وصار من جملة أصحابه العشرة، وكانت حادثة التمييز من أخص المهمّات التي أسندها إليه صاحبه، وكانت غزاة البحيرة بمراكش ضد المرابطين آخر ما كلّف به، حيث لقي حتفه يوم السبت 2 جمادى الأولى سنة 524هـ/ 12 أبريل 1130م. ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص305-305./البيذق، المصدر السابق، هامش 14، ص19، وص39 وما بعدها./ ابن الأثير عزّ الدين، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1417هـ/1997م، ج8، ص660.

2 - ابن خلّكان أبو العبّاس، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ط1، 1994، ج5، ص48 و52-53.

3 - انفرد البيذق بذكر هذا المكان دون غيره من المصادر التي أرّخت لهذه الحادثة. أُنظر أخبار المهدي، ص39. ويبدو أنّ هذا المكان يقع جنوب غرب مراكش، على اعتبار أنّ قبيلتي هنتاتة وكدميوة كانتا من بين القبائل التي شملها التميز، فهنتاتة اسم كان يطلق على جبل من جبال أطلس، كما يطلق على القبيلة، وكان موطنهم المعروف بهم من جبل درن، وهو الجبل المتاخم لمراكش المطل عليها. أُنظر: ابن خلدون، ج6، ص360. وأمّا كدميوة، فكانوا تبعا لهنتاتة وتينمّل في الأمر، وجبلهم لصق جبل هنتاتة. أُنظر: ابن خلدون، المصدر نفسه، ج6، ص364. ولا يستبعد أن يكون هذا المكان بتنمّل، ذلك أنّ ابن تومرت بعد فتحه لقلاع جبل درن وحصونه وأوديته، رجع إلى تينمّل فاستراح بها مدّة، ثمّ شرع في تمييز الموحدين. أُنظر: ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص178-179.

4 - ابن الأثير عزّ الدين، المصدر السابق، ج8، ص658.

5 - ابن سماك، المصدر السابق، ص191.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد3 (نوفمبر) 1444هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-012-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

والسياسية في صفر سنة 539هـ/أوت 1144م التي تزعّمها ابن قسي[1]، الذي كان يرى استعمال القوة من أجل تغيير الحكم؛ وحاصر ابن غانية هذه الثورة في لبلة حتى كاد يقضي عليها، لكنه اضطرّ إلى فك الحصار عنها، عندما علم بقيام القاضي ابن حمدين بالثورة على المرابطين في قرطبة؛ وكانت هذه الثورة الشرارة الأولى لبداية ثورة القضاة[2]، الذين رأوا بوادر سقوط الدولة المرابطية في الأندلس، وتأكّدوا بأنّ زوالها مسألة وقت قصير، خصوصا بعد الأخبار التي وصلتهم عن استيلاء الموحدين على المغرب.

وبدل الوقوف في هذا الظرف الصعب مع الدولة التي أعلت شأنهم، تنصّلوا من التزاماتهم نحوها وقاموا بتأسيس إمارات مستقلّة حفاظا على سابق رياستهم وسلطانهم القومي[3]؛ فثار القاضي ابن حمدين بقرطبة واستقلّ بها، وثار الفقيه أبو الحكم بن حسّون الكلبي بمالقة واستبدّ بها، واستقلّ الفقيه محمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسي بمرسية، والفقيه أبو عبد الملك بن مروان بن عبد العزيز بدانية، ثم أضاف إليها بلنسية وشاطبة ولقنت، وفي غرناطة ثار الفقيه أبو الحسن علي بن عمر بن أضحى إلى غير ذلك من المتأمّرين الذين لا يسمح المجال للوقوف على تفاصيلهم[4].

وممّا تقدّم ذكره يتّضح لنا أنّ الدولة المرابطية تعرّضت لمؤامرة نسج خيوطها العدوّ والصديق، فهؤلاء الفقهاء والقضاة الذين كانوا يتفيّأون ظلالها الوارفة، وينعمون بوافر النّعم الذي أغدقته عليهم، سرعان ما أداروا ظهرهم لها، ولم يكن يهمّهم من الأمر سوى الحفاظ على سمعتهم الشخصية وثرواتهم الفاحشة، فتصدّع بذلك التحالف الذي كان يربط بين السلطتين الروحية والسياسية على مرّ المراحل التي مرّت بها الدولة اللمتونية إذا ما استثنينا مرحلة التداعي والسقوط بطبيعة الحال.

ولا يختلف اثنان على أنّ دولة المرابطين كانت دولة جهاد بالدرجة الأولى، فقد استطاعت أن توحّد المغرب والأندلس تحت كنفها، فضلا عن إيقافها للزحف الإسباني على

---

1 - ابن الأبّار القضاعي، الحلّة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985، ج2، ص198.

2 - دندش، المرجع السابق، صص74-75.

3 - محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثالث، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الأول، عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1411هـ/1990م، ج3، ص318.

4 - بوتشيش، المرجع السابق، ص148./ فاطمة الزهراء جدو، السلطة والمتصوّفة في الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (479-635هـ/1086-1238م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة منتوري، قسنطينة، السنة الجامعية 1428-1429هـ/2007-2008م، ص116-117.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد3 (نوفمبر) 1444ه/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-012-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

ملوك الطوائف في معركة الزلاّقة عام 479ه/1086م، التي أخّرت سقوط الأندلس ردحا من الزمن، بعد حرب الاسترداد على أراضيها.

إنّ المتأمّل في التحالف الذي جمع بين السلطتين الدينية والسياسية، ممثّلا في شخصي ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي، يلاحظ اتّباع نفس النهج الذي قامت عليه الدولة المرابطية، حيث قاما معا بتقويض أركانها وإزالتها من الوجود، فقد بدأ الموحدون بخطّة اعتمدت على الدعوة الدينية، من أجل الوصول إلى إقامة الدولة السياسية؛ وكان العلم الذي جاء به ابن تومرت من المشرق، يمثّل المشروع البديل للقضاء على سرّ قوّة الدولة المرابطية المتمثّل في تبنّيها للفقه المالكي، الذي اعتمد أصحابه على مسائل الفروع وبخاصّة فقه النوازل وما يتعلّق بالعبادات والمعاملات، من أسئلة وما يقابلها من أجوبة على استفسارات النّاس[1].

ولم تكن أصول الفقه تحظى عند فقهاء المرابطين بنفس الأهمّية، لبعد فهمها وإدراكها لدى العامّة من النّاس، ومن هنا جاءتهم سهام ابن تومرت؛ الذي عاد من المشرق إلى المغرب بحرا متفجّرا من العلم[2]، فتفوّق عليهم في الاجتماع الذي نظّمه الأمير علي، وحضره خيرة علماء دولته، ولم يكن فيهم من يقوم له لقوّة أدلّته[3].

وقد استكثر ابن تومرت من الإنكار على المرابطين أمراء وفقهاء، وقام يأمر النّاس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهو بذلك يقصد تأليب الرّعيّة على الحكم المرابطي، ولما استفحل أمره ونفي إلى أغمات استوت له الأمور بالتقرّب من عصبيته القبلية المتمثلة في قبيلة مصمودة، التي كانت تتمنّع في جبل درن بالسوس الأقصى، وذهب أحد الباحثين إلى أنّها كانت حينئذ أكثر من نصف سكان المغرب جميعا[4].

وهناك قام بالدّعوة إلى مذهبه وأعلن خلعه للأمير علي بن يوسف، لتبدأ المرحلة الثّانية من حياته بأمر البيعة، التي كانت في منتصف شهر رمضان سنة 515ه/25 نوفمبر 1121م[5]؛ وقد جاءت بعد أن مهّد الطّريق لنظرية المهدوية، وتسميته بالإمام المعصوم، التي بثّها

1 - شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، فيفري 1983، النشرة الثانية، ج2، ص 124 .
2 - ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص302.
3 - ابن الأثير، المصدر السابق، ج8 ، ص655.
4 - عبدالله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف بمصر، 1971، ص72.
5 - الزركشي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1966، ص6.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد3 (نوفمبر) 1444هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-012-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

أنصاره وتلاميذه بين رؤساء القبائل؛ فلمّا آتت دعوته هذه أكلها، قام يوم البيعة خطيبا في أصحابه، وصرّح بالعصمة لنفسه، وأنّه المهدي المنتظر[1]؛ وألّف العقائد لأتباعه على رأي الأشعرية السنّيّة، مثل المرشدة في التوحيد، وخالفهم في إثبات الصفات، آخذا برأي المعتزلة الذين ينفونها، وكان إلى جانب ذلك على رأي الشيعة الإمامية في القول بعصمة الإمام، وألّف كتابه في الإمامية "أعزّ ما يطلب"[2].

وممّا تقدّم ذكره يلاحظ أنّ ابن تومرت أسّس مذهبا جديدا، جمع فيه من كلّ مذهب ما يخدم ويحقّق طموحاته في إقامة حكم جديد، يختلف عن مذهب المرابطين الديني وسياستهم في الملك، ليتمكّن من إزاحتهم من مسرح الأحداث في المغرب والأندلس.

وقد أحسن استغلال الظروف التي تخدم مشروعه السياسي الطموح استغلالا جيّدا، فاتّخذ من حادثة إحراق كتاب الإحياء للغزالي ذريعة لرمي المرابطين، أمراء وفقهاء وقضاة بكلّ نقص؛ ومحلّ الشّاهد أنّه لم تكن له نفس الرؤّية التي كان يراها أبو حامد في مسألة الاجتهاد، معتبرا نفسه الإمام المعصوم؛ وقد عارض الغزالي بشدّة نظرية عصمة الإمام، وأظهر فسادها بغاية البرهان، في كتابه المنقذ من الضلال[3].

إن عقيدة العصمة[4] والمهدوية التي استخفّ بها ابن تومرت أتباعه سهلت له القضاء على المرابطين، بتحريك قبائل المصامدة وحلفائهم إلى قتالهم، ورغم وفاته سنة 524هـ/1130م فقد رسّخ جذور دعوته الدينية التي ستنتهي بتأسيس الدولة التي كان يحلم بها، في ذلكم اللقاء الذي جمع بينه وبين عبد المؤمن في ملالة، ليتأكّد مجدّدا قيام الدول في العصر الوسيط بالمشرق الإسلامي ومغربه بناء على تحالف الدعوات الدينية والسياسية، أو ما كان يعرف بالعصبية الدينية والعصبية القبلية.

---

1 - المراكشي، المصدر السابق، ص141./ابن سماك العاملي، المصدر السابق، ص175-176.

2 - ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص302.

3 - الغزالي أبو حامد، المنقذ من الضلال، تحقيق محمود بيجو، مراجعة د.محمد سعيد رمضان البوطي والشيخ عبد القادر الأرناؤوط، دار التقوى، دمشق- دار الفتح، عمان، 1992، صص57-59.

4 - تدارك السلطان المنصور أبو يوسف يعقوب ابنُ السلطان يوسف ابنِ السلطان عبدِ المؤمن بنِ عليّ (580-595هـ1184-1199م) هذه المسألة فكان لا يقول بعصمة ابن تومرت. إلاّ أنّه أمر بإحراق كتب الفروع في المذهب المالكي، وأن يجمع العلماء المحدّثون المقرّبون إليه، أحاديث المصنّفات العشرة في الصلاة وما يتعلّق بها. وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث. وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده، إلا أنهما لم يظهراه، وأظهره يعقوب هذا. ينظر: الذهبي شمس الدين، سير أعلام النبلاء، دار الحديث- القاهرة، 1427هـ/2006م، ج15، ص430./ عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، صص202-204.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد3 (نوفمبر) 1444هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-012-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

ولا جرم أنّ العامّة من أهل المغرب لم تتأثّر بتغيّر الدول التي ظهرت بمجالها الجغرافي، فرغم محاولة الشيعة العبيديين تغيير معتقدهم السنّي أيّام حكمهم لبلاد المغرب، فإنّهم سرعان ماعادوا إليه رغم المحن التي كانوا يتعرّضون إليها؛ فلما آل حكم إفريقة إلى المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن منّاد الصنهاجي، كان له رغبة في مذهب أهل السّنة، خالف فيه أسلافه الذين كانوا على مذهب الشّيعة الرافضة، ففي عهده تشجّع العامّة فأعلنوا الثورة على الرّافضة، وأعلنوا معتقدهم وقطعوا من الأذان حَيّ على خير العمل[1].

وما إقدام المنصور أبي يوسف يعقوب الموحدي على حمل الناس على المذهب الظاهري وإحراقه لكتب الفروع في المذهب المالكي[2] إلاّ دليل آخر على أنّ أهل المغرب ظلوا متمسكين بهذا المذهب السنّي رغم تبدّل الدول وتغيّر الأحوال، بحيث سيعود مجدّدا هذا المذهب إلى الظهور في بلاد المغرب قاطبة بعد زوال الدولة الموحدية، وتبنّيه من قبل السلطة والرعية في الدويلات الثلاث التي خرجت من عباءة الموحدين: الحفصية في تونس، والزيانية في الجزائر، والمرينية في المغرب الأقصى،ويمتدّ به الزمان إلى أيّامنا هذه في المغرب العربي بكامله.

خاتمة: من أهم النتائج والاستنتاجات التي توصّلنا إليها في هذا البحث، ما يلي:

- شهدت بلاد المغرب في العصر الوسيط ظهور عدد من الدول كان منطلقها دعوات دينية، تحالف حاملوها مع شخصيات سياسية تنتمي لقبائل متنفّدة، من أجل ترجمة أفكارهم إلى دعوات سياسية، بغية الكشف عن مشروع تأسيس الدولة، لإخراجها من العدم إلى الوجود.
- سارت الزعامة الدينية جنبا إلى جنب مع الزعامة السياسية، لإضفاء الشرعية على سلوك الحكّام، ومسلكهم في تسيير دواليب الدولة، وينطبق هذا المثال على الدولة المرابطية التي تحالفت فيها السلطتين الروحية والزمنية، منذ الإرهاصات الأولى التي سبقت التأسيس إلى العهد الأخير من وجودها في المغرب والأندلس.

---

1 - ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص18./ السلاوي الناصري، الاستقصا لإخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، (د.ت)، ج2، ص164.

2 - لا يعني أخذه بالظاهر من القرآن والحديث أنّه كان على ظاهرية ابن حزم، وإلاّ لكان أخذ في الفقه بالمحلّى في الآثار، لابن حزم، الذي يقع في 12 مجلّدا. ويفهم من حرقه لكتب فروع المذهب المالكي، أنّه كان يكره كثرة الآراء في المسألة الواحدة، فلم يبق منها إلاّ على ما هو قرآن أو حديث. أنظر:عبد الواحد المراكشي، المصدر نفسه، ص202-203.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد3 (نوفمبر) 1444هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-012-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

- إذا كان سرّ قوّة الدولة المرابطية اعتمادها على الفقهاء الذين كان لهم الدور الكبير في شدّ أزرها، والدفاع عن سياسات أمرائها، فقد تحوّلت قوّة الدولة المرابطية إلى ضعف بتغيّر معيشة بعض حكّامها وفقهائها مع مطلع القرن 6هـ/12م، الذين صاروا يحرصون على الدنيا أكثر من حرصهم على تطبيق شرائع الدين.

- تلقّف خصومهم في الداخل هذه العورات، لزرع بذور دعوتهم في تجربة جديدة جمعت بين سلطتين دينية قادها ابن تومرت، وسياسية تزعّمها عبد المؤمن بن علي، للإطاحة بالمرابطين سياسيا ومذهبيا، مستغلّين انشغالهم بحرب النصارى في الأندلس، وقيام ثورات المريدين واستقلال الفقهاء بما تحت أيديهم من المدن هناك.

- وسط هذه الظروف الداخلية والخارجية نجح التحالف الجديد باستمالة العوام من الناس، بتزييف الحقائق المتعلّقة بالمرابطين في دينهم، وألصق بهم مختلف التهم والادعاءات الباطلة، فتمكّن هذا التحالف من الإطاحة بالتحالف المرابطي القديم، لينتهي بذلك عهد المرابطين معلنا عن بداية دولة الموحدين، ولتبدأ من جديد تجربة التحالف بين السلطتين الروحية والزمنية.